مدينة قونيـــة

(بامضرة مولانا)

للدكتور عبد الوهاب عزام

فصل من رحلات الدكتور عبدالوهاب عزام التي تطبع الآن في مطبعة الرسالة تنشره بمناسبة ذكرى انتصار الجيش المصري في قونية على الجيش التركي .

— ١ —

من أسكيشهر الى قونية

أمضيت يوم الأحد في أسكيشهر ثم ركبت قطار المساء والساعة ست ميمماً قونية ؛ وكانت زيارة قونية منية في النفس حاولتها حينما سافرت إلى استانبول من قبل فحال دونها بُعد الشقة ؛ وبينها وبين استانبول أكثر من عشرين ساعة بالقطار . وكنت حينئذ أهاب اختراق الأناضول ، فلما اخترقته في هذه السفرة وأنست بالسفر فيه عزمت على الرجوع إلى الشام من الطريق الذي أتيت منه ؛ وكانت قونية أحبّ بلاده إليّ وكانت نفسي على رؤيتها أحرص . وإنما أربي من قونية زيارة مولانا جلال الدين

كان معي في القطار شاب من قونية ممه زوجه فحدثني عن الترك وتمسكهم بدينهم وما فعلوا في الحرب ، وكيف توغل اليونان في الأناضول حتى قذفهم أبطال الترك في البحر . وقال : إنهم قاربوا قونية ولكن مولانا جلال الدين ردّهم عنها . قلت في نفسي : هذه كلمة ظاهرها خرافة وباطنها حق ؛ فإن ما بثه جلال الدين في النفوس من قوة وإيمان وجهاد وحرية جدير أن يرد كل عدوّ عن حماه

— ٢ —

بلغ القطار قونية والساعة ست ونصف من الصباح فمضيت إلى فندق اسمه فندق سلجوق فاسترحت بمقدار ماحال التعب الشديد بيني وبين مشاهدة المعاهد التي طال اشتياقي إليها . ثم خرجت إلى المكتبة « ملت كتبخانة سي » فألقيت نظرة على فهارس المكتبة ولا سيما العربية منها فلم أجد فيها من نفائس الكتب أو غرائبها ما يستوقف الباحث . وأرسل معنا قيم المكتبة رجلاً من الموكلين بالآثار فذهب بنا إلى حيث يدفعنا الشوق ويدعونا الحب إلى البقعة التي ترسل الشعر والحكمة والتصوف في آفاق الإسلام منذ ستة قرون ، إلى المزار الذي استبدل به صاحبه قلوب العارفين :

فلا تطلبن في الأرض قبري فإنما ... صدور الرجال العارفين مزاري

إلى الذكرى المظيمة التي لا تزال تدوى في القلوب تقى وشعراً ، وفي العقول حكمة وإيماناً ، وفي الآذان موسيقى وغناء؛ إلى النبوغ الذي مزج الحكمة والتصوف والشعر في أحسن تقويم؛ إلى الرجل الذي أنبته بلخ وظفرت به قونية ولكن لم يسع قلبه وعقله مكان ؛ إلى الحكيم البكري الذي لا تحده الأنساب والأوطان ؛ إلى صاحب المثنوى والديوان مولانا جلال الدين الرومي الذي تنسب إليه الطائفة المولوية المعروفة في مصر والأقطار الإسلامية، وقد اشتهرت مجالسهم في السماع، يجتمعون على نظام خاص ويدورون بترتيب محكم على نغمات الناى وإنشاد المثنوى؛ والناى عند المولوية رمز إلى الحنين الدائم إلى العالم الروحي وقد بدأ مولانا جلال الدين كتاب المثنوى بنشيد الناى وأوله :

استمع للنـــاى غنى وحكى ... شفّه البين طويلاً فشكا

مذ نأى الغاب ـ وكان الوطنا ... مـــلأ الناس أنيني شجنا

من تشرده النوى عن أصله ... يبتغي الرجعى لمغنى وصله

أين قلب من فراق مُزّقا ... كي أبثّ الوجد فيه حُرّقا

كلّ نادٍ قد رآني نادباً ... كل قوم تحذوني صاحبا

الطواف في الموضوع وذلك سر تفوقه » فهذه كلمة الحق وأما ماتلاها من لواذع فهو ظلم

ونريد أن نرجح أن المقالات التي كتبها الأستاذ أحمد أمين في الثقافة بعنوان (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) هي التي حملت الدكتور مبارك على أن يسمي قلة توفيق الأستاذ أحمد أمين في مباحثه هذه (جناية على الأدب العربي) . ونحن لا نقول عن هذه التسمية إنها (جناية) على أحمد أمين بل نسميها (تجنياً على أحمد أمين) . ولعل الدكتور يبدل عنوان هذه السلسلة بعنوان آخر يستحسنه ، فإنه إن لم يفعل ذلك من باب الإنصاف والرقة في النقد فليفعله من باب الكياسة، كيلا يمنح أحمد أمين، من حيث لايشاء، زعامة قوية في الأدب العربي، فإن من يستطيع بمقال أو بمقالين أن يجني على الأدب العربي لا بد أن يكون زعيماً من زعمائه إن لم يكن كبير زعمائه .

« طرابلس الشام » نديم الجسر

ظن كلٌّ أنني نعم سمير ليس يدرى أى سر فى الضمير
إن سرى فى أنينى قد صهر غير أن الأذن كالت والبصر
إن صوت الناى نار لا هوء كل من لم يصطلها فهو هباء
هى نار العشق فى الناى تثور وهى نار العشق فى الخمر تفور. الخ

وكان للمولوية فى تركيا شأن عظيم وكان رئيسهم (جلبى قونية) يقلد سلاطين المسلمين السيف حين يتولون الملك

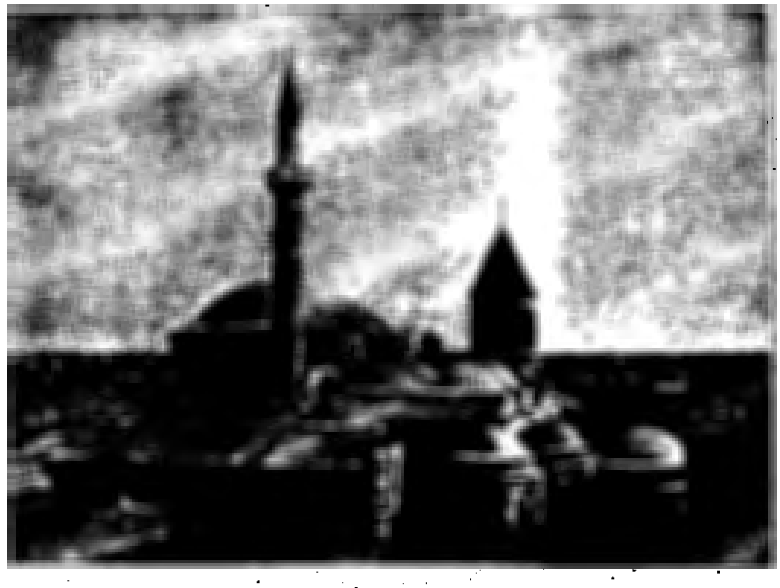

دار المولوية في قونية

وكذلك كان لهم أثر عظيم فى الأدب، وحسبك من شعرائهم الشيخ غالب

هذه دار المولوى ولكن لا أرى الوفود متزاحمة على بابها، ولا أرى الدار آهلة بنزالها، قد أقفر الندىّ، وخلا الساحر، وعدّت الدار من الآثار، يدخل إليها بالمال الصالحون والفجار

يلقى الداخل سور يتوسطه باب عتيق فوقه ظلة وعليه ثلاثة أبيات بالتركية تدل على أن السلطان مراد خان بن سليم خان بنى هذه الخانقاه سنة ٩٩٢ هـ. ومراد هذا هو مراد الثالث ابن سليم الثانى ابن سليمان القانونى (٩٨٢ — ١٠٠٣ هـ) فإذا ولج رأى فناء ينتهى إلى الشمال بحجرات كانت مساكن المولوية ومجالسهم ومطابخهم ومأوى ضيوفهم. وإلى اليمين حجر رفيعة اتخذت الآن مكتبة. وأمام الداخل بناء كبير تعلوه فى الجهة اليمنى قبة خضراء مخروطية تحلّق فوق قبر جلال الدين، وفى الجهة اليسرى مأذنة وقبتان كبيرتان، ويُدخل إلى البناء من باب جميل مصنّع تعلوه كتابة فيها هذا الشعار الذى يرى على كثير من أبنية المولوية: «يا حضرت مولانا» ويفضى الباب إلى حجرة فيها آثار للمولوية فيها كتب ونسخ من المثنوى هى أقدم نسخة وأنفسها، ثم باب آخر يفضى إلى قبور المولوية والمصلى ودار السماع (سماعخانة): إلى اليمين رواق عليه قبة ويفصله سياج وستر تمنع الناس أن يدخلوا إليه أو يروا ما فيه إلا أعالى ضريحين كبيرين أحدهما لجلال الدين والآخر لأبيه بهاء الدين ويبدو ضريح الأب من وراء السياج مستطيلاً رأسياً فيقول العامة: لقد قام بهاء الدين فى قبره إجلالاً لابنه

وفى وسط البناء رواق بناه السلطان الفاتح، وإلى اليسار مصلى ودار للسماع من آثار السلطان سليمان القانونى

وفى البناء من عجائب الخط والنقش والتذهيب والكتب والبسُط ما يبهر الناظر، وفيه من ملابس مولانا وآثاره وآثار بنيه

رأيت أربع قلانس قيل إن إحداها قلنسوة مولانا، وأخرى لابنه سلطان ولد، والثالثة لشمس الدين التبريزى، والرابعة لحسام الدين جلبى من كبار أصحاب جلال الدين

ورأيت ثلاثة مصاحف كتبت فى أواخر القرن التاسع فيها ترجمة تركية ومصحف سلجوقى بين سطوره ترجمة فارسية ونسخا من شروح المثنوى، ونسخة من الفتوحات يقال إنها بخط الشيخ الأكبر

ورأيت سجادة عليها صورة الكعبة قيل إنها كانت لأم جلال الدين مؤمنة خاتون بنت السلطان جلال الدين خوارزمشاه، وسجادة أخرى يقال إن السلطان علاء الدين السلجوقى أهداها لجلال الدين يوم عرسه، عليها الآية: «أقم الصلاة لدلوك الشمس» ... الخ

وقناديل صنعت فى مصر ... الخ الخ

أطفنا بجوانب المكان نستمع إلى الدليل، وللذكرى فى نفوسنا صوت أبين من صوته وأصدق وأجل، ولكنى أستعيذ بالله من قول القائل:

يك طواف مرقد سلطان مولانا ى ما
هفت هزار وهفصد وهفت وحج أكبر ست

«طوفة بمرقد مولانا سبعة آلاف وسبعمائة وسبعون حجا أكبر»

ثم خرجت وفى النفس حنين إلى البقاء وعزم على العودة :

خرجت أمشي يقول قلبي للرَّجـــل بالله أنظريني

الباب الداخلى لمزار جلال الدين

وعدت فى اليوم التالى فلقيت أمين الدار وكنت واعدته اللقاء لاشتراء بعض الصور ، فقلت : أريد تجديد العهـد بالمزار فدخل معى يطوف فى أرجائه ويصف ما يرى ويروى من التاريخ . وخرجت ولم أقض حاجات الفؤاد من رؤية ما وراء السياج . ونعوذ بالله من الحجاب ! إن شرّ مايلقى الصوفىّ أن تسدل الحجب دون آماله ويحال بينه وبين مقصوده . خرجت كارهاً أتثاقل لأمضى مع الرجل إلى داره فيعرض علىّ ماصوّر من آثار قونية . قال : أأنت أستاذ ؟ قلت : نعم . قال : انتظر ، ثم أشار إلىّ فتبعته فرجع إلى المزار وتلفّت ثم أشار إلىّ وفتح باب السياج فتبعته . قال : نحن نمنع العامة من الدخول ونمكّن الأساتذة الباحثين من رؤية ما يشاءون . فشكرت له وسرت إلى ضريح جلال الدين بين قبور كثيرة لشيوخ المولوية من أولاده . وقفت وقفة أناجى الروح العظيم وأستلهم حكمته وعظمته ؛ ثم خرجت وفى النفس ما فيها من جلال الذكرى وثورة الشوق

— ٣ —

ورأينا من آثار قونية مسجد علاء الدين وقصره وهما من أعظم آثار السلاجقة هناك ؛ يقومان على ربوة فى المدينة تسمى ربوة علاء الدين (علاء الدين تپه سى)

ورأينا على مقربة من الربوة مدرسة قره داى وزير السلطان علاء الدين ولا يزال فيها من عجائب الصنعة ، ولا سيما الكاشانى ما يخلّدها على رغم الزمان الذى ذهب برونقها وكثير من نقوشها

وعلى باب المدرسة آيات وأحاديث وكلمات عربية منها: رب أوزعنى أن أشكر نعمتك . إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . السماح رباح . العسر شؤم . الحزم سوء الظن . الولد مجبنة مبخلة

وفى المدرسة بهو عليه قبة ، وإيوان وحجر قليلة كانت للطلاب ، وحجرة فيها ضريح صاحبها

مدرسة قره داى فى قونية

وزرنا مدرسة خربة تسمى صرجه لى مدرسه بنيت سنة ٦٤٠هـ ومدرسة صغيرة لحفظ القرآن كتب على بابها :

أنشأ هـذه البقعة فى أيام دولة السلطان محمد بن علاء الدين خلد الله مملكته صاحب الخيرات والحسنات محمد بن الحاج خاصبك الخطيبى أعلى الله شأنه وجعلها دار الحفاظ سنة أربع وعشرين وثمانمائة

وهذا تاريخ محرّف فيما أظن فقد انتهت دولة السلاجقة قبل هذا التاريخ . والظاهر أن البناء شيد سنة أربع وعشرين وستمائة فى عهد علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦ — ٦٣٤) إلا أن يكون السلطان المذكور هنا من سلاطين بنى قرمان الذين خلفوا السلاجقة فى قونية

(البقية فى العدد القادم)

عبد الوهاب عزام